

مكوّنات الهويّة الإسلاميّة في القرآن والسنة

مكوّنات الهويّة الإسلاميّة في القرآن والسنة

أ. د. دلال عباس- لبنان

تعريف المصطلحات:

الهويّة: ميّز الفلاسفة بين الهويّة الطبيعيّة الواقعيّة المشتركة بين البشر وبين البهائم، وبين الهويّة الأخلاقيّة القائمة على "الوعي الذاتي" أو شعور الأنا الذي يجعل الإنسان قادرًا على الشعور بالثواب والعقاب، والذي يؤسّس خلودَ النفس البشريّة [1]. والهويّة متعيّنة وليست مجردة،

أي أنّها تحتوي على تميزات كامنة وتناقضات يتم حلّها خلال عمليّة التطوّر التي ترجع إلى شروط معيّنة [2]، وقال الفارابيّ في التعليقات: "هؤويّةُ الشيء وعينيّته وتخشّصه، وخصويّته، ووجوده المنفرد له، كلٌّ واحد" [3].

إذًا هؤويّة الشخص هي الصفات الأخلاقيّة والمسلكيّة التي تميّزه من غيره، وهؤويّة الجماعة هي الصفات العامّة المشتركة الأخلاقيّة والمسلكيّة، التي تميّزها من غيرها من الجماعات.

أمّا صفة الإسلاميّة؛ فنسبة إلى الإسلام " إِنْ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ " [4]، و "أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهَُ صَدْرَهُ لِّلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَيَّ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ" [5]، "وَمَنْ يَدْتَعِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ" [6]، "وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ" [7] "وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا" [7]، "مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا" [8].

القرآن. هو الاسم الذي غلب استعماله لكتاب الله الذي انزله على محمد (صلى الله عليه وآله وسلم)، والقرآن في اللغة مصدرٌ مرادف للقراءة ومنه قوله تعالى "إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ" [9] "إِذَا قَرَأْتَ آيَاتِهِ فَاتَّبِعْهُ وَقُرْآنَهُ" [9].

أمّا تعريفُ "القرآن" المتفقُ عليه بين الأصوليين والفقهاء وعلماء العربية، فهو أنّّه الكلامُ المعجز، المنزّلُ على النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم)، المكتوبُ في المصاحف، المنقولُ عنه بالتواتر، والمتعبّدُ بتلاوته. والقرآنُ أنموذج للكتابة تتداخل فيه مختلف أنواع الكتابة الأدبيّة سردًا وحواريًا، وقصصًا وتاريخيًا، وحكمةً، وأدبيًا، وتتداخل فيه مختلف أنواع المعرفة: فلسفةً وأخلاقيًا وسياسةً وتشريعًا، واجتماعيًا واقتصاديًا، وإجابةً عن أسئلة الوجود والمصير بشكل جماليّ فنّيّ، تجسّد في كتابةٍ فاجأت العرب، بحيث أجمعوا على أنّها فريدةٌ لم يروا مثلها، وأنّها لا تُضاهد؛ ولم يعرفوا كيف يحدّونها، استنادًا إلى المعايير التي يعرفونها، فقالوا إنّها نثرٌ ليست كمثّل النثر، وشعرٌ ليست كمثّل الشعر، وإنّها كتابةٌ لا توصف، وسرٌّ لا يمكن

سبره، واتفقوا على أنزها نقص لعادة العرب في الكتابة[110]. والقرآن كما وصفه [عز وجل] "هو السذي أنزل علىك الكتاب منه آيات موحكمات هن أمم الكتاب وأخر متشابهات فأما ما السذين في قلوبهم زيغ فيتتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولوا الألباب"[111]، وهو "القول الفصل وما هو بالهزل"[112]، وقد أنزل بالحق "وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا"[113]، وهو كامل "مما فرطنا في الكتاب من شيء" وهو الهادي[114]، "إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ويضلل للذين المومنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرًا كبيرًا"[115]، وفيه الرحمة "ونُنزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْعَالَمِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا"[116]، وهو منزه عن العيب وعن العوج "قرآنا عربيا غير ذي عوجٍ لعلهم يتسقون"[117]، "ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للعلمتقين"[118]، والمفصلة آياته "الكتاب أوحى آياته ثم فوضت من لدن حكيم خبير"[119]، و "أفغير الله أبتغي حكما وهو السذي أنزل لإليك الكتاب مفضلا والسذين آتيناهاهم يعلمون أنزه من نزل من ربك بالحق فلا تكونن من المومتريين"[120]، والتام الكامل "اليوم ينس السذين كفرُوا من دينكم فلا تخشوهم واخشون اليوم أكمات لكم دينكم وأتممت علىكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا"[121]، والذي لا يأتبه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، "وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ولكن تصديق الذي بين يديه وتفضيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين"[122]،

"لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفضيل كل شيء وهدى ورحمة للفقوم يؤمنون"[123]،

"ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما ما فيه ويقولون يا

وَيَلْتَنَّا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَصَابَهَا
وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا" [24]،

"قَالَ عَلَمُهُمَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى" [25]،

"تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ" [26]،

"طس تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ" [27]،

"طسم تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ" [28]،

"تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ" [29] .

القرآن يفسر بعضه بعضًا:

لقد كان المبدأ الذي طرحه المفسرون، أن الغموض الراجح إلى "الإجمال" يمكن الوصول إلى دلالة بالعودة إلى "النص القرآني" ذاته في مكان آخر، فالمجمل في موضوع له بيان في موضع آخر؛ فلما نزل قوله تعالى: ولم يَلْدِسُوا إيمانهم بظلم" قالوا: أيّنا لم يظلم نفسه؛ ففسره النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بالشرك، واستدلّ عليه بقوله تعالى: "إنّ الشرك لظلمٌ عظيم". لقد كان تفسير الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) الظلم بالشرك، تفسيرًا للنصّ بالنصّ ذاته، فالنصّ من خلال نظامه اللغويّ والدلاليّ، يؤسّس مُعْجَمَه الخاصّ، ويضع أساس تفسير بعض أجزائه، وقد قال العلماء:

"من أراد تفسير الكتاب العزيز طلبه أو لاء من القرآن، فما أجمَلَ منه في مكان، فُسر في موضع آخر، وما اختصر في مكان بوسط في موضع آخر" [30].

السنة: هي ما حكي عن النبي من قول أو فعل أو تقرير [31]، ما يعنينا هنا: أحاديث النبي التي لا يشك بصحتها مضمونًا وأسلوبًا، وخطبه، وجدله، وكتبه، ووصاياه لأصحابه، لأن المرويّات المنسوبة إلى النبي بلغ التزيّد فيها حدًا لا يقبله عقل أو منطق [32]. والكتب الحديثية كلها من دون استثناء لدى السنة والشيعة لا تخلو من هذه الآفة، "حتى أن أئمة أهل البيت (ع) أنكروا روايات كثيرة مروية عنهم، وعن النبي، وأمروا أصحابهم وشيعتهم بعرض الأحاديث المنقولة عنهم على القرآن، وأخذ ما وافقه، وترك ما خالفه" [33]. وبما أن القرآن يتضمّن كلّ ما أراد بيانه من كليات الشريعة وهو الحاكم على ما عداه، فإن الحديث النبوي الصحيح هو الذي فصل أصول الدين وحدوده، كما صور المبادئ الأخلاقية والاجتماعية والإنسانية التي جاء بها القرآن، مفصلاً المجمل، وموضّحًا المبهم، ومقيّدًا المطلق، وشارحًا العام، وقد أوجب الله تعالى على النبي (صلى) أن يبيّن للناس ما أنزل في القرآن: "وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ" [34].

مكوّنات الهوية الإسلامية في القرآن:

إنّ الإسلام كما وصفه النصّ القرآني مناقضٌ للشرك بالدرجة الأولى، وليتحقّق الإسلام، وليكون الإنسان مسلمًا، وتكون الجماعة مسلمة، يجب أن تتخلّق بأخلاق القرآن، وتسعى جاهدة [تكديح] للوصول إلى الكمال: الكمال المسلكي الذي يوصل إلى الكمال المعنوي.

الهوية الشكلية: أن يطيل الرجال لحاهم، ولا يشربون الخمر، ولا يأكلون لحم الخنزير، والنساء محجبات، حتى في المجتمعات غير المسلمة "يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكُمْ وَبَنَاتِكُمْ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ

يُعْرَفُونَ فَلَا يُؤْذِينَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا" [35]، من المؤكّد والمسلّم به أنّ هذا مطلوب، إنّما يبقى هذا الظاهر شكلاً أجوفاً إنّ لم يلتزم المسلمون رجالاً ونساءً بأوامر الله ونواهيه ويكونوا متّقين: ممارسة العبادات والالتزام بالطواهر، هي التقوى الفرديّة، لكنّ هذه التقوى الفرديّة والتي تهدف إلى التزكية، لا تكفي وحدها، فهناك ما يمكن أن نسمّيه "التقوى الاجتماعيّة"، أي علاقة الإنسان بالآخر، ليكون جزءاً من الأمّة المسلمة، وهي ما وصفه القرآن "بالصراط المستقيم"، وقد عرّفه القرآن في عشرات الآيات، وجاءت مجموعةً في الآيات 151- 153 من سورة الأنعام "قُلْ تَعَالَوْا أَتَلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ كُفْرًا بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُ بِهِمْ رَبِّيَ إِذْ يَدْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ فَآبَوْا عَلَى الْكُفْرَانِ" [36]، وافترافُ الفواحش، وقتلُ النفس المحترمة بغير حق، ويدخلُ فيه قتلُ الأَوْلاد خشيّة إِملاق، وغصبُ مال اليتيم، وعدمُ إيفاء الكيل والميزان بالقسط، والظلمُ في القول، وعدمُ الوفاء بعهد الله، واتّباعُ غير سبيل الله المؤدّي إلى الاختلاف في الدين. ومن شواهد أنّها شرائع عامّة أنّها نجدُها في ما نقله الله سبحانه من خطابات الأنبياء أمّمهم في تبليغاتهم الدينيّة، وقد قال تعالى: "شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ" [37]... ثم التعبير في هذه الآيات الثلاث التي تحدّد أصول المحرّمات الإلهيّة أيضاً بالتوصية. والتأمّل فيها ينبئ أنّ الدين الإلهي لا يتمّ أمره ولا يستقيم حاله من دون التحلّي بها. وقد اختلفت الخواتيم في الآيات الثلاث، فختتم الأولى بقوله: "ذلكم وصّاكم به لعلّكم تتقون" والثانية بقوله: "ذلكم وصّاكم به لعلّكم تذكّرون"، والثالثة بقوله: "ذلكم وصّاكم به لعلّكم تتقون".

ولعلّ الوجه في ذلك أنّ الأمور المذكورة في الآية الأولى وهي الشرك بالله العظيم، وعقوق الوالدين، وقتل الأَوْلاد من إِملاق، ومقاربة الفواحش الشنيعة، وقتل النفس المحترمة مما تُدرِك الفطرة الإنسانيّة حرمتها، ولا يجترء عليها الإنسان إلا إذا اتّبع الأهواء ودجّب عقله.

وما ذُكر منها في الآية الثانية وهي الاجتناب عن مال اليتيم وإيفاء الكيل والميزان بالقسط، والعدل في القول، والوفاء بالعهد، يحتاج الإنسان العاقل فيها إلى التذكُّر حتى يدرك ما فيها من المفساد الهادمة لبنيان مجتمعه، المودية به، وبسائر بني نوعه إلى التهلكة، فماذا يبقى من الخير في مجتمع إنساني لا يُرحم فيه الصغيرُ الضعيفُ، ويُطفِّفُ فيه الكيلُ والميزان، ولا يُعدِّلُ فيه في الحكم والقضاء والشهادات والوصايا والفتاوى والأحكام، ولا يُصغى فيه إلى كلمة الحقِّ، هذا فضلاً عن دور الإعلام في بثِّ الفرقة بين أبناء الأمة نفسها، هذا الإعلام الناعق، الذي كان يمثلُّه في ما مضى فقهاء السلاطين وعملاء السلطة، أضيف إليهم في هذا العصر محطات التلفاز المأجورة ولذا خُتمت الآية بقوله: "ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون".

والغرض المسوقة له الآية الثالثة هو النهي عن التفرُّق والاختلاف في الدين باتِّباع سبل غير سبيل الحقِّ. وذلك أنَّ التقوى الدينية إنَّما تحصل بالتبصُّر في المناهي الإلهية والورع عن محارمه بالتعقُّل والتذكُّر، وبعبارة أخرى بالتزام الفكرة الإنسانية التي بُنيَ عليها الدين، وقد قال تعالى: "وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا" [38]، وقد وعد الحقُّ المتقين إنَّهم "اتَّقُوا أَنْ يَمْدَّ هَمَّ بِمَا يَتَّصِحُّ بِهِ سَبِيلُهُمْ، ويفرِّق بين الحقِّ والباطل عندهم فقال: "وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا" [39]، وقال: "إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا" [40].

فالإنسان على صراط التقوى (الصراط المستقيم)، ما دام ملازمًا لطريق التعقُّل والتذكُّر، جاريًا على مجرى الفطرة، وإذا انحرف عن هذا الصراط، واتَّبع غير الهدى واغترَّ بزينة الحياة الدنيا، جذبته الأهواء إلى الاسترسال والعكوف على مخالفة العقل السليم وترك التقوى الدينية... والتقوى الدينية لا تحصل بالتفرُّق والاختلاف، والورود في أيِّ مشرعة شرعية، والسلوك في أيِّ وادٍ لاح لسالكه، بل التزام الصراط المستقيم، الذي لا تخلُّف فيه ولا اختلاف، فذلك هو الذي يُرجى معه التلبُّس بلباس التقوى، ولذلك عقَّب الحقُّ سبحانه بقوله: "ولا تتَّبِعُوا السبل فتفرِّق بكم عن سبيله" بقوله: "ذلكم وصاكم به لعلكم تتَّقون"؛ وذلك ليكونوا خير أمة أخرجت للناس، إنَّهم ساروا على الصراط المستقيم الذي سنَّه لهم الحقُّ عزَّ وجلَّ، وتقيَّدوا بالضوابط التي وصفها لهم القرآن، المحكومة كلَّها بقِيَمِ "الدعوة إلى الخير"، و "الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر"، وإنَّهم تخلَّصوا بالأخلاق القرآنية، ألم

يقول النبي "إنّما بُعثت لأتمّم مكارم الأخلاق"، ساعين إلى الوصول إلى الكمال: الكمال المسلكي الموصول إلى الكمال المعنوي. لذلك فإنّ الذين يُطلق عليهم اسمُ المسلمين ليسوا في الواقع وفي الحقيقة على درجة واحدة قريبًا أو بعدًا من الإسلام الحقيقي، وأنماط السلوك التي فرضها القرآن، والصفات الأخلاقية التي طُلِبَ إليهم التحلّي بها... يبقى هنالك صراعٌ أزلّي بين الظاهر والباطن، وبين درجات الالتزام بالأوامر والنواهي الإلهية؛ واستقراءُ تاريخ المسلمين وحاضرهم يبيّن لنا بوضوح لا ريبَ فيه، تحريفَ العقائد، لتسويغ أنماط السلوط المناقضة شكلاً ومضموناً لما جاء في النصّ القرآني، والتي يعود بعضها إلى العادات والتقاليد الجاهلية لدى العرب أنفسهم ناقلي الدين إلى البلدان المفتوحة، والعادات والتقاليد لدى المسلمين من غير العرب التي تعود جذورها إلى ما قبل الإسلام، وإلى الممارسات التي فرضتها السلطات السياسية الجائرة التي قرّمت الإسلام، وجعلته إيديولوجيا للحكم، تضيّق بواسطته الخناق على رقاب الأمة.

لذلك توجّب تعريف مكونات الهوية الإسلامية، لا كما هي في الواقع، وإنّما كما يجب أن تكون، من خلال النصّ القرآني، وتالياً السنّة الصحيحة. لأنّ القرآن الحاكم على ما عداه رسم بوضوح سلماً ما للقيم الفردية المحكومة بالتقوى والقيم الاجتماعية المحكومة بالتكافل، والقيم السياسية التي تبدأ بإقامة العدل ومحاربة الظلم، فلا يجوز أن يغضّ المسلم طَرَفَه عن الظلم اللاحق بأيّ إنسان آخر أو جماعة أخرى أو دولة أخرى، كما هو حاصل في فلسطين وغيرها، والنهي عن البغي والعلو، وتنتهي بالحكم على من يُفسد في الأرض، ويختصرها كلّها عنوان الطغيان. من هنا يكتسب القول بالالتزام بمرجعية القرآن، أهميته، أي ضرورة "تنصيب القرآن الكريم في المقام الأرفع للمرجعية المعرفية" [41]: "أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلى قُلُوبٍ أَقْفَالٌ هَاهَا" [42] ، فالقرآن كما وصف نفسه هو "القول الفصل" "وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ" [43]، والتحلّي بالأخلاق القرآنية هو المكوّن الأساسي للهوية الإسلامية، لأنّ الأخلاق القرآنية على تماسٍ بالتفاصيل الدقيقة الشخصية والروحية، والقضايا المتعلقة بمنهجية تحقّق الكمالات الفردية من جميع الجوانب، وتالياً المجتمع (في العلاقة الجدلية بين الطرفين). فالآيات التي تتطرّق إلى "المسؤولية"، و"الحرية" و"الإرادة"، و"العمل الصالح"، و"الإيمان والدوافع" و"العبادة والتقوى"، و"العمل والسعي والمجاهدة" و"الروابط الاجتماعية"، و"العدل والعدالة"، و"التكافل الاجتماعي" أضعا فآيات الأحكام، وهذا معناه أهميّة الجوانب والأبعاد الأخلاقية في الدين، وسيطرتها على معظم حقول العلوم الدينية الأخرى.

وهووية الأمة الإسلامية أنزها أمة وسط " وكذلك جعلناكم أمة وسطاً
لست تكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً وما
جعلنا الفريضة على قلبها إلا لنعلم من يتتبع الرسول
ممن ينقلب على عقبيه وإن كانت لكبيرة إلا لعل الذين هدى
الله وما كان الله ليضيع إيمانكم إن الله بالناس لرؤوف
رحيم" [441]، أي أن سبحانه جعل هذه الأمة وسطاً بأن جعل لهم ديناً يهدي منتحليه إلى سواء
السبيل، أي الصراط المستقيم، الطريق المستقيم، وسط الطرق الأخرى ذات المسالك والمعابر المتعرجة
أو المنحرفة أو المغالية، أو الشكلانية المحضّة، أو المادية المحضّة، أو الروحانية المحضّة.
وهذه الأمة هي الوسط العدل الذي به يُقاس ويوزن كل من طرفي الإفراط والتفريط، فهي الشاهدة على
سائر الناس، والنبى شهيدٌ عليها، فهو المثال الأكمل من هذه الأمة، والميزان الذي يوزن به حال
الآحاد منها، والأمة ميزان يوزن به حال الناس، والوسطية معنى يستتبع الشهادة والشهداء، وقال
قال تعالى "وجاهدوا في الله حق جهاده هو أجتباكم وما جعل
عليكم في الدين من حرجٍ مّلاّة أبّيكُم إبراهيم هو سمّاكم
المسلمين من قبلُ وفي هذا ليعنون الرسولُ شهيداً عليكم وتكونوا
شهداء على الناس فأقيموا الصّلاة وآتوا الزّكاة واعتصموا بالله هو
مولاكم فنعمّ المؤمنون ونعمّ النّصير" [451]، وقوله "ليكون الرسول عليكم شهيداً
وتكونوا شهداء على الناس"، أي لتتوسطوا بين الرسول وبين الناس، وعند ذلك يتحقّق مصداق دعاء
إبراهيم عليه السلام فيكم وفي الرسول "ربّنا وابعث فيهم رسّولاً منهم يتدلّو
عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويؤمّمهم إنك أنت
العزّيز الحكيم" [461]، لتكونوا أمة مسلمة أودع الرسول في قلوبكم علمي الكتاب والحكمة،
مزكّين بتزكّيته، مطهّرين قلوبكم من الدنس، ولتكونوا مسلمين خالصين في عبوديّتكم، وللرسول من
ذلك القدّم الأوّل والهداية والتربية، فله التقدّم على الجميع. وقد ألفت القرآن إلى مسألة
التوازن والوسطية في ميادين السلوك كافة (حتماً عدا ضرورة محاربة الظالمين، أي أن يصبحوا
مثلاً وسيطاً بين إسرائيل والفلسطينيين مثلاً وهذا الصراط غير المستقيم، أو أحد الطرق المنحرفة)،
إنّ القرآن الكريم يهدف إلى بناء حياة متوازنة بنظر العرف والعقلاء، لذلك ألفت على سبيل المثال
إلى مسألة التوازن والوسطية في الإنفاق "ولّا تجعّل يدك مغلولةً إلى عنقك ولا
تبسطها كلّ الّيسط فتقع عدّ ملاًوماً مّحسّورا" [471]، فالتوازن بالإنفاق هو حالة
وسطية تقع بين سلوكين متطرّفين: التبذير "إنّ المبيذّرين كانوا إخوان
الشّياطين وكان الشّيطان لربّ به كفوراً" [481]، والهوس المرضي في اكتناز المال
وإدخاره "يأأيّها الذين آمنوا إنّ كثيرًا من الأحمبار والرهّبان

يتحدّث عن "أمّة إسلاميّة" وإنّما عن أمّة مؤمنين "الصّابرين والصّادقين
والقّاننين والمُنفيين والمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ" "وَلَتَكُنَّ مِّنكُمْ
أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ
وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ" [55].

والمؤمنون هم: "التّائبون العابدون الحامدون السّائحون الرّاكعون
السّاجدون الأمرؤنّ بِالْمَعْرُوفِ وَالنّاهونّ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ
اللّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ" [56].

والمسلمون ليسوا خير أمّة أخرجت للناس إلاّ إذا كانوا مصداقًا للدعاء الذي أطلقه النبيّ إبراهيم
(ع) "رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ
وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ" [57]، أو ما ورد
بمعنى التسليم "وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ" [58] وهو مُحْسِنٌ
وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا" [58]. أو ما
أوجه عليهم من النظر في خلق السماوات والأرض والجبال والإبل والنفس البشريّة وآيات [59]، والتفكّر
والتدبّر "أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ" [59] والإفادة من الطواهر الكونيّة
المسخّرة: هنالك في القرآن إحدى وثلاثون آية تتحدّث صراحةً عن التسخير، وما من صغيرة ولا كبيرة في
كتاب [60] إلاّ وللخالق عزّ وجلّ فيها مقصدٌ وغاية. هذا يعني وجوب قراءة القرآن الكريم قراءة تدبّر
وعناية "قُلْ يَجْمَعُ بَيْنِنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ" وهو
الْفَتْحُ الْعَلِيمُ" [60]، لا تقليد مقولات من سلفٍ بقضّها وقضيضها، من دون عرضها على القرآن
"وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا
إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ" [61].

كما أنّ القرآن يدعو إلى التعارف والمجادلة ودعوة الآخرين بالحكمة والموعظة الحسنة... هذه الأمّة
الإسلاميّة (الأمّة الوسط) مكلّفة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر "وَلَتَكُنَّ مِّنكُمْ أُمَّةٌ
يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ

وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ" [62] يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تَأْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ" [74]، وإِ بِأمرهم أَنْ يقرنوا القولَ بالفعل "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ كَبِيرٌ مَّقْتَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ إِنْ لَّا اللَّهُ رَحْبُ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَّرْصُوعٌ" [75]، القرآن يعرفهم الوليَّ الذي يجب أن يتبعوه "وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ" [76] وبأمرهم أَنْ يكونوا مع الصادقين "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ" [77]، وإِنْ ظَلَمُوا مَوَالِينَ لِلظَّالِمِينَ (لأميركا وإسرائيل) فهم بحكم المرتدِّين، لأنَّهم لا يطعون إِيَّا رسولَها؛ وقد وعد إِيَّ المجتمع الإسلاميَّ بالإتيان بقوم يحدهم ويحدونه أدلَّة على المؤمنين، أعزَّة على الكافرين، يجاهدون في سبيل إِيَّ، ولا يخافون في الحقِّ لومة لائم "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ" "إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الصَّالِحِينَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ رَاكِعُونَ" "وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ" [78]، هذه الأمة مأمورة بالاعتصام بحبل إِيَّ "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ حَقِّهِ تَلْقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ" [79]، والروايات من طرق الفريقين، فسرت حبل إِيَّ بالقرآن، كما أنَّ حديث الثقلين أيضًا من المتواترات التي أجمع عليها روايتها الفريقان، وعدم الفرقة والبحث عن مواطن التقارب "وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ" [63] لا تقبل ولاية أحد من خارج نسيج قيمها "وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْتُونََ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ" [64]، هي أمة واحدة وليست أممًا: ليست عربية ولا فارسيَّة ولا هنديَّة، ولا شرقيَّة ولا غربيَّة "إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً

وَأَنزَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ" [65]. لا فضل لها على غيرها إلا بالتقوى "يَا أَيُّهَا النَّاسُ
إِنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا
إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتَقَاكُمْ" إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ" [66]، وهي أمة
مجاهدة عزيزة "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ
يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ
عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ
فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ" [67] و"يَقُولُونَ لَئِن
رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدْيَنَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنَّا الْأَذِلَّةَ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ
وَلِرَسُولِهِ وَلِلَّهِ الْمُؤْمِنُونَ وَلَئِن لَّا يَعْصِمُونَ" [68]، أمة مؤمنين
يقاتلون في سبيل الله "إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ
بِأَنَّهُمْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدَا
عَلَيْهِمْ حَقًّا فِي النَّوَارَةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَن أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ
اللَّهِ فَاسْتَبَشِرُوا بِيَدِيْعِكُمْ" الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ
الْعَظِيمُ" [69]، ولا يركنون للظالمين، ولا يحالفون أعداء الدين "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا
لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن
يَتَوَلَّهُمْ مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنهُمْ" إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ
الظَّالِمِينَ" [70]، ولا الكافرين "الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ
الْمُؤْمِنِينَ أَلْيَدِيْعَتُهُمْ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةُ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا" [71] "يَا
أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ
الْمُؤْمِنِينَ أَلْيَدِيْعَتُهُمْ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةُ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا" [72] ،
والمعضلة الكبرى أن المسلمين المعاصرين لم يجدوا حتى الآن العدو من الصديق لأنهم مسلمون
وليسوا مؤمنين "وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِمَا وَالَّذِي" وَالَّذِي وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا
اتَّخِذُوا أَوْلِيَاءَ وَلَا يَكْفُرُونَ" كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَاسْرِقُوا" [73] و

هذه الأمة مكلفة بالإعداد العسكري الدائم، [النتائج عن تقدمها العلمي وتفوقها التقني لا أن
تكون سوقًا لمصانع أسلحة المستكبرين]، وذلك لتحسين بنيتها من أي اختراق "وَأَعِدُّوا لَهُمْ
مَا اسْتَطَعْتُمْ مِّن قُوَّةٍ وَمِنْ رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ
وَعَدُوَّكُمْ وَأَخْرَجْنَا مَن دُونِهِمْ" لَا تَعْلَمُونَ لَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا
تُنْفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُؤَفِّقْ إِلَيْكُمْ وَأَن تُمَّ لَا تُظْلَمُونَ" [80] ،

ومأمورة بالمرابطة "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا" [\[81\]](#)، ومأمورة بنشر قيم الخير والعدل "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا أُمِّيْنَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ يَدْتَعُونَ فَضُلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرَضُوا أَنَا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا" [\[82\]](#)، ومنهيّة عن اتّباع الهوى وطاعة غير أولياء الأمر المؤمنين، وأولياء الأمرهم "إِنَّمَا وَلِيَّكُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ" [\[83\]](#) وهي مأمورة بتوزيع ثورتها بين أفرادها على قاعدة التكافل، وانطلاقًا من هذه الثروة الشاملة، وانسجامًا مع روح الجماعة المؤمنة، كان من المنطقي أن تكون القيادة من سنخ الكتلة المؤمنة التي تنتمي إليها، ولا بدّ من أن تكون القيادة عالميّة بدينها، وعاملةً به، وعالميةً بأحوال اجتماعها السياسي والاقتصادي، ومدركةً روح المشروع الإلهي الهادف إلى إشاعة قيم الحق والخير، ومحاصرة قيم الهوى والضلال والفساد والبغي.

الهويّة الإسلاميّة في السنّة:

سأكتفي في ما يتعلّق بالسنّة النبويّة، بما جاء في خطبة الرسول في حجّة الوداع، يوم الغدير، أو الخطبة الوصيّة [\[84\]](#):

لعلّ هذه الخطبة [\[85\]](#)، هي خيرُ خطبة تشريعيّة تصوّر كيف كان الرسول يُنظّم هذا المجتمع الروحي، ويرسي قواعده [\[86\]](#): "في السنة العاشرة للهجرة النبويّة، بعد أن انتهى الرسول من أداء فريضة الحجّ في مكّة المكرّمة وفي طريق العودة إلى المدينة تتبّعه جموع الحجّيج، وقبيل وصوله إلى "غدير خم"، حيث تتشعب طرق المدنيّين والبصريّين والعراقيّين نزلت عليه الآية: "يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا يَبَلِّغُكَ رَسَالَتَهُ"

وَاللَّهِ يُعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ [87].

عندئذ أمر الرسول، فجمع الناس وصلّى صلاةً، وألقى فيهم خطبةً، قال فيها بعد حمدًا: "أيّها الناس، هل تدرّون في أيّ يوم أنتم، وفي أيّ بلد أنتم؟ قالوا:

"في يوم حرام وفي شهر حرام، وفي بلدٍ حرام"، ثم قال: "الحمد لله ونستعينه، ونستغفره، ونتوب إليه، ونعوذُ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلّ له، ومن يضللّه فلا هاديّ له، وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأنّ محمّدًا عبده ورسوله. أوصيكم، عباد الله، بتقوى الله، وأحثّكم على طاعته، واستفتح بالذي هو خير. أما بعد، أيّها الناس! اسمعوا مني أبيّين لكم، فإنّي لا أدري، لعلّي لا ألقاكم بعد عامي هذا في موقفي هذا، وهنا قال للناس، وقد رفع يدَ عليّ: أألسنّ أولي بالمؤمنين من أنفسهم، قالوا: بلى، قال: من كنت مولاه فعليّ مولا، اللّهم وال من والاه، وعاد من عاداه، وأحبّ من أحبّه، وابغض من ابغضه، وانصر من نصره، وأعين من أعانته، واخذل من خذله، وأدرّ الحقّ معه حيث دار".

أيّها الناس إنّ دماءكم وأموالكم عليكم حرام، إلى أن تلقوا ربّكم، كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا، في بلدكم هذا، ألا هل بلّغت؟ اللّهم أشهد.

فمن كانت عنده أمانة فليؤدّها إلى الذي ائتمنّه عليها، وإنّ ربّ الجاهليّة موضوع [88]، وإنّ أوّل ربّ أبدأ به ربّ عمّي العباس بن عبد المطلب، وإنّ مآثر الجاهليّة موضوعة غير السّدانة [89] والسّقاية [90] والعمد قود [91]، وشبه العمد ما قُتل بالعصا والحجر، وفيه مئةٌ بغير، فمن زاد فهو من أهل الجاهليّة.

أيّها الناس! إنّ الشيطان قد يئس أن يُعبّد في أرضكم هذه، ولكنّه قد رضي، أن يُطاع في ما سوى ذلك مما تحفّرون من أعمالكم.

أَيُّهَا النَّاسُ: "إِنَّ مَا النِّسِيءُ [92] زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يَضِلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا، يَحِلُّ وَنَهَ عَامًّا وَيُحَرِّمُ مَوْنَهُ عَامًّا، لِيُؤَاطِنُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ، إِنَّ الزَّيْمَانَ قَدْ اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَإِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ، يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ، فِيهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ: ثَلَاثَةٌ مُتَوَالِيَاتٌ وَوَاحِدٌ فَرْدٌ: ذُو الْقَعْدَةِ وَذُو الْحِجَّةِ وَالْمَحَرَّمِ وَرَجَبٌ، الَّذِي بَيْنَ جَمَادَى وَشَعْبَانَ، أَلَا هَلْ بَلَغَتْ؟ اللَّهُمَّ أَشْهَدُ.

أَيُّهَا النَّاسُ! إِنَّ لِنِسَائِكُمْ عَلَيْكُمْ حَقًّا، وَلَكُمْ عَلَيْهِنَّ حَقٌّ، لَكُمْ عَلَيْهِنَّ أَنْ لَا يُؤَاطِنَنَّ فَرَشَكُمْ غَيْرَكُمْ، وَلَا يُدْخِلَنَّ أَحَدًا تَكَرُّهونه بِيُوتَكُمْ إِلَّا بِإِذْنِكُمْ، وَلَا يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مَبِينَةٍ، فَإِنَّ فَعْلَانِ فَإِنَّ قَدْ أذِنَ لَكُمْ أَنْ تَعْضَلُوهُنَّ، وَتَهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَتَضْرِبُوهُنَّ ضَرْبًا غَيْرَ مَبْرُوحٍ [93]، فَإِنَّ انْتِهَآيَةَ وَأَطْعَمَنَكُمْ، فَعَلَيْكُمْ رِزْقُهُنَّ وَكُسُوتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ، وَإِنَّ مَا النِّسَاءُ عَوَانٍ لَا يَمْلِكْنَ لِأَنْفُسِهِنَّ شَيْئًا، أَخَذْتُمُوهُنَّ بِأَمَانَةٍ، وَاسْتَحْلَلْتُمُ فُرُوجَهُنَّ بِكَلِمَةٍ، فَاتَّقُوا اللَّهَ فِي النِّسَاءِ وَاسْتَوْصُوا بِهِنَّ خَيْرًا، أَلَا هَلْ بَلَغَتْ اللَّهُمَّ أَشْهَدُ.

أَيُّهَا النَّاسُ! إِنَّ مَا الْمُؤْمِنُونَ أُخُوَّةٌ وَلَا يَحِلُّ لِلْمَرْءِ لِمَرْءٍ مُسْلِمٍ مَالُ أَخِيهِ إِلَّا عَنْ طِبِّ نَفْسِهِ، أَلَا هَلْ بَلَغَتْ؟ اللَّهُمَّ أَشْهَدُ.

فَلَا تَرْجِعَنَّ بَعْدِي كُفْرًا يَضْرِبُ بَعْضَكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ، فَإِنَِّّي قَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا إِنْ أَخَذْتُمْ بِهِ لَنْ تَضَلُّوا بَعْدَهُ: كِتَابُ اللَّهِ طَرَفٌ بِيَدِ اللَّهِ عِزٌّ وَجَلٌّ، وَطَرَفٌ بِأَيْدِيكُمْ وَعِتْرَتِي أَهْلُ بَيْتِي، فَتَمَسَّكُوا بِهِمْ، وَلَا تَضَلُّوا، أَلَا هَلْ بَلَغَتْ؟ اللَّهُمَّ أَشْهَدُ.

أَيُّهَا النَّاسُ! إِنَّ رَبِّكُمْ وَاحِدٌ وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ، كَلَّا كُمْ لِأَدَمَ وَآدَمُ مِنْ تَرَابٍ، إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ، وَلَيْسَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى عَجْمِيٍّ فَضْلٌ إِلَّا بِالتَّقْوَى، أَلَا هَلْ بَلَغَتْ؟ اللَّهُمَّ أَشْهَدُ. قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: فَلْيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ.

أَيُّهَا النَّاسُ! إِنَّ إِيَّاهُ قَسَمَ لِكُلِّ وَارِثٍ نَصِيبَهُ مِنَ الْمِيرَاثِ فَلَا تَجُوزُ وَصِيَّةٌ لَوَارِثٍ فِي أَكْثَرِ مِنَ الثَّلَاثِ، وَالْوَالِدُ لِلْفَرَّاشِ، وَلِلْعَاهِرِ الْحَجَرُ. مَنْ ادَّعَى لِغَيْرِ أَبِيهِ أَوْ تَوَلَّى غَيْرَ مَوَالِيهِ، فَعَلِيهِ لَعْنَةُ إِيَّاهُ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ، لَا يُقْبَلُ مِنْهُ صَرْفٌ وَلَا عَدْلٌ. وَالسَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ إِيَّاهُ وَبَرَكَاتُهُ".

كانت هذه الخطبة آخرَ خطبةٍ للرسولِ، لذلك أراد أنْ يُعيدَ على مسامعِ المسلمين (وقد أحسَّ بقرب الأجلِ)، بعضَ الوصايا وبعضَ ما حرَّمَ إِيَّاهُ عزَّ وجلَّ في كتابِهِ العزيزِ. ومن المسلمِّ به أنَّ هذه المواضعَ الواردةَ كَلَّهَا في النصِّ القرآنيِّ، كان الرسولُ قد شرَّحها وفصَّلها حين نزولِ الآياتِ المتعلقةِ بها.

إذًا لماذا التركيز على هذه المواضع دون غيرها؟

(التحذير من البغي والعدوان، والعودة إلى سنن الجاهليَّة؟)

ألا يحق لنا أنْ نتساءل هنا عن ذلك؟ أكان الرسولُ يحدِّسُ أنَّ العربَ، لن يتخلَّوا وَا بِسُرْعَةٍ عن عاداتهم التي نشأوا عليها، وأنَّهم سيعودون بعد وفاته إلى سيرتهم الأولى؛ فأراد أنْ تكونَ خطبتهُ الأخيرةُ تحذيرًا لهم، ودستورًا يسيرون على نهجة في الآتي من الأيام؟

لا شك أنَّ النبيَّ قد عانى من نفاق القوم ما عانى، وعانى من قلَّةِ فهمهم وانقيادهم لتعاليم الدين الحنيف، وبساطة تفكيرهم، على الرِّسِّ غم من تحذير القرآن من اتباع الطرق، التي تصلُّ بهم عن الطريق المستقيم، لذلك جاء تركيز الرسول في خطبته على المواضع المرتبطة بعادات القوم، التي يخشى من أنْ يعودوا إليها بعد وفاته:

- التوحيد الخالص والإيمان الكامل، لا يكتمل إلاّ بالإيمان بما جاء في كتاب الله العزيز، وما أوصى به رسوله الكريم:

فدماءُ المسلمين حرامٌ كأموالهم، فلا قتلَ ولا نهبَ ولا سلبَ، لقد انتهى قتلُ النفسِ المحرّمةِ وانتهى قطعُ الطرقِ، وانتهتِ الخياناتُ بجميعِ ضروبِها، فمن كان عندَه أمانةٌ فليؤدِّها وليتخلَّ المؤمنُ عن عاداتِه وتقاليدهِ الجاهليَّةِ.

العادة الأولى: التي حرّمها الدين ويذكرُهمُ الرسولُ للمرّة الأخيرة بحرمتها، هي عادةُ الثأرِ إذ جعل حقّ الدمِّ للدولة، فالقاتلُ المتعمّدُ تقتلهُ الدولةُ بصاحبهِ، أما من قُتلَ خطأً فديّته ناقة لا تزيد... (مع ذلك مضى على تحريم عادة الثأر تحريمًا قاطعًا ما يزيد على أربعة عشر قرنًا؛ ولا تزال سارية ومستحكمة في كثير من المناطق، التي تتبع عاداتها البدوية أكثر مما تتبع تعاليم القرآن، وتعاليم الرسول).

العادة الثانية: المرتبطة بتنظيم المجتمع اقتصاديًّا هي عادة الرّبّا التي حرّمها القرآن تحريمًا قاطعًا وها الرسول يعيد على مسامع الناس أنّها محرّمة.

العادة الثالثة: التي تخالف العقل والمنطق وتشبه (لعب الأطفال)، هي عادة النسيء، وتأجيل شهر أو تقديمه.

رابعًا: على الرغم من الحقوق التي أعطها الإسلام للمرأة، ولكنّ نظرة العرب الدونية إلى المرأة، ما كان من الممكن أن تتغيّر بين ليلة وضحاها، لذلك كان تركيز الرسول في الخطبة، الوصية هذه، على الحقوق التي أعطها الله للنساء، ويوصيهم بهن خيرًا: ليس للرجل من حقّ على المرأة سوى حقّ واحد هو أن لا تخونه؛ وفي ما عدا ذلك فإنّ من واجب الرجل حمايتَها ورعايتَها والإنفاقَ عليها...

خامسًا: يدعو إلى صيانة الرّوابطِ الدينيّةِ والأخويّةِ بين المؤمنين.

سادسًا: يُعلنُ المساواةَ التامّةَ بين المسلمين، وبينَ الناسِ عامّةً، برغصّ الذّطرِّ عن الجنسِ واللّونِ، (وهذا ما سينساه المسلمون بعد قليل، حين سيعمد الأمويّين إلى تحكيم العرب في رقاب الناس، ويمارسون تمييزًا عنصريًّا بحقِّ المسلمين من غير العرب). وإلاّ، من أين أتت هذه العصبية القوميّة والعرقية، ومن ثمّ المذهبيّة التي فرّقتهم ولا تزال؟

سابعًا: من المواضيع التي حدّدها القرآن موضوع الإرث، ولكنّ النبيّ - أيضًا (لأنّّه يعرف تعلق بني آدم بالمال)، يذّكرهم أنّهم إنّما، قد قسم لكل وارثٍ نصيبه من الميراث، وأنّّه لا يجوز لوارثٍ وصيّة، ولا يجوز وصيّة في أكثر من الثلث: كي لا يُحرّم أصحابُ الحقوق من حقوقهم.

ثامنًا: يوصي أنّ الولد للفراش، ويذكر بحرمة الانتساب إلى غير الآباء (كأنّ لم يسمع الجميع هذه الوصيّة، وإلاّ فلماذا خالفها معاوية ونسبَ زياد بن سميّة إلى أبي سفيان؟).

لقد بدأ الرسول الخطبة بأسلوب الاستفهام الإنكاريّ، الذي ينبّه الأذهان الغافلة، ويحرّك العقول الراكدة، ويقوم جسرًا من التواصل بين الخطيب وبين المستمعين، فالخطيب هنا، يريد التعليم، وهذا الأسلوب التعليميّ واضح في طريقة العرض، وفي التدرّج من العام إلى الخاص.

الأسلوب التعليميّ في الاستفهام: ثم في الإجابة عن الأسئلة المطروحة وبالتدرج من العام: "أوصيكم بتقوى الله، وأحنكم على طاعته" إلى الخاص تقوى الله تتمثّل في اتّباع التعاليم التالية... أيضًا تتابعت التعاليم بحسب أهمّيّتها، أو بحسب استحكام العادات التي يريدون أن يتخلّصوا منها في نفوسهم.

إنَّ تَكَرُّرَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ: تَأْكِيدٌ عَلَى أَنَّ الوَصِيَّةَ عَامَّةٌ، وَغَيْرُ مُتَعَلِّقَةٍ بِالمُسْلِمِينَ المَعَاصِرِينَ لِلدَّعْوَةِ، أَوْ بِالعَرَبِ وَحَدِهِمْ، وَإِنَّ مَا هِيَ لِلنَّاسِ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ. أُمََّّا تَكَرُّرُ أَلَا هَلْ بَلَغَتْ: اللِّسَانُ هُمْ أَشْهَدُ؟ فَتَأْكِيدٌ عَلَى أَنَّ الرِّسُولَ يُذَكِّرُهُمْ بِأَنَّ رَسُولَهُ [] وَأَنَّ عَلَيْهِ إِبْلَاغُهُمْ، وَقَدْ أَبْلَغَهُمْ قَبْلَ هَذِهِ الخُطْبَةِ - وَعَلَى مَدَى ثَلَاثِينَ وَعِشْرِينَ سَنَةً مِنْ قَبْلِ - كَلَامَ رَبِّهِ، وَإِنَّ مَا يَرِيدُ هُنَا أَنْ يَضَعَ عَلَيْهِمُ الحِجَّةَ، فَمَنْ تَنَاسَى مَا فِي كِتَابِ []، هَا هُوَ يُذَكِّرُهُمْ بِهِ لِلْمَرَّةِ الأَخِيرَةِ: كَمَا أَنَّ رَسُولَهُ يَرِيدُ أَنْ يَبْلُغَهُمْ شَيْئًا آخَرَ، وَلَكِنَّ رَسُولَهُ غَيْرُ وَاثِقٍ مِنْهُمْ!! وَهُوَ مَا أَمَرَهُ [] عَزَّ وَجَلَّ بِتَبْلِيغِهِ:

"يَا أَيُّهَا الرِّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا نَفْسُكَ مِنَ النَّاسِ" [94]:

مَا هُوَ الأَمْرُ الَّذِي يَجِبُ أَنْ يَبْلُغَ بِهِ الرِّسُولُ النَّاسَ؟ إِنَّ رَسُولَهُ مِنْ دُونِ أَدْنَى رَيْبٍ مَوْضُوعِ الوِلَايَةِ، وَعَلَى هَذَا الأَسَاسِ بَعْدَ أَنْ أَنْهَى النَّبِيَّ خُطْبَتَهُ: نَزَلَ عَلَيْهِ الوَحْيُ لِلْمَرَّةِ الأَخِيرَةِ: "الَّذِينَ آمَنُوا أَكْمَلَتْ لَكُمْ دِينَكُمْ وَاتَّسَمَّتْ وَعَلَيْكُمْ وَعَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيَّتُ لَكُمُْ الإِسْلَامَ دِينًا" [95].

أَنْهَى كَلَامِي عَلَى الهُدُويَّةِ الإِسْلَامِيَّةِ فِي القُرْآنِ وَالسُّنَنِ، بِدَعْوَةِ المُسْلِمِينَ لِيَكُونُوا مُصَدِّقًا مَا أَمَرَهُمْ بِهِ [] عَزَّ وَجَلَّ، وَأَنْ يُعِيدُوا النِّظَرَ فِي أَقْوَالِهِمْ وَأَفْعَالِهِمْ، وَيَتَخَلَّصُوا عَنْ مَوْرُوثَاتِهِمُ المُنَافِضَةِ لِلكِتَابِ وَالسُّنَنِ الصَّحِيحَةِ، بِأَنْ يَزِنُوهَا بِمِيزَانِ القُرْآنِ، وَيَكْذَبُوا لَتَنْقِيَةِ دِينِهِمْ مِمَّا عَلِقَ بِهِ مِنْ غِبَارِ التَّارِيخِ... أُمََّّا بِالنِّسْبَةِ إِلَى نِظَامِ الحُكْمِ الَّذِي يَجِبُ أَنْ يُتَّبَعَ، فَأَنْصَحُهُمْ بِإِعَادَةِ قِرَاءَةِ وَصِيَّةِ الخَلِيفَةِ الرَّابِعِ الإِمَامِ عَلِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى وَالِيهِ عَلَى مِصْرَ (مَالِكِ الأَشْتَرِ) [96]، وَالَّذِي يَحْدُدُ فِيهِ دَوْرَ الوَالِي (الحَاكِمِ) الإِقْتِصَادِيَّ وَالعَسْكَرِيَّ وَالرِّعَايِيَّ وَالدِّيْنِيَّ، وَيَدْعُو فِيهِ إِلَى مِمَارَسَةِ الحُكْمِ كَمَا يَجِبُ أَنْ يَكُونَ، لَا كَمَا هُوَ فِي الوَاقِعِ، مُتَجَاوِزًا فِيهِ عَصْرَهُ وَنَاسَ عَصْرِهِ، لِيَكُونَ مَعْيَارًا لِلحُكْمِ فِي كُلِّ عَصْرٍ وَمِصْرٍ.

المصادر والمراجع:

فضلاً عن القرآن الكريم:

- 1- بهاء الدين العامليّ، أديبًا وفقيهًا وعالمًا. د. دلال عباس، دار الحوار، بيروت، سنة 1995م.
دار المؤرّخ العربيّ، 2010م.
- 2- البيان والتبيين للجاحظ، دار الفكر، بيروت، لا. ت.
- 3- التصوير الفنّيّ في القرآن. سيد قطب. دار الشروق سنة 1992م.
- 4- التفسير الكاشف لمحمّد جواد مغنية، دار العلم للملايين، بيروت، سنة 1981م.
- 5- تفسير الميزان، للطباطبائيّ، مؤسّسة الأعلميّ، بيروت، الطبعة الثانية، سنة 1972م.
- 6- جمهرة خطب العرب، أحمد زكي صفوت، ط. الحلبيّ، مصر، سنة 1933م.
- 7- دلائل الإعجاز: عبد القاهر الجرجانيّ، مكتبة القاهرة، الطبعة الأولى، 1389هـ، سنة 1969م.
- 8- السيرة النبويّة لابن هشام، تحقيق طه عبد الرؤوف سعد، دار الجيل، بيروت، لبنان 1975م.

9- علوم الحديث ومصطلحه، د. صبحي الصالح، دار العلم للملايين، بيروت، سنة 1965م.

10- في طلال القرآن، سيد قطب، القاهرة، دار إحياء الكتب العربيّة، لا. ت.

11- القرآن والشعر، د. دلال عباس، دار المواسم، بيروت، ط4، 2009م.

12- مباحث في علوم القرآن، د. صبحي الصالح، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الرابعة، سنة 1965م.

13- نهج البلاغة، شرح ابن أبي الحديد، دار الأندلس، بيروت، لا. ت.

14- نهج البلاغة، شرح الشيخ محمد عبده، دار البلاغة، الطبعة الأولى، سنة 1989م.

[11] - موسوعة لاند الفلسفيّة - دار عويدات، بيروت 2008م، مادة Identité.

[21]- الموسوعة الفلسفيّة، م. روزنتال، ب. يورين، ترجمة سمير كرم، دار الطليعة، بيروت 1997م،
مادّة "الهويّة".

[31]- المعجم الفلسفيّ، د. جميل صليبا، مج2، دار الكتاب اللبناني، بيروت 1982م، مادّة
"الهويّة".

[4]- س. آل عمران، ي 19.

[5]- س الزمر/مري 22.

[6] - س آل عمران، ي 85.

[7] - س النساء/ي 125.

[8] - س آل عمران/ي 67.

[9] - س القيامة، ي 17 - 18.

[10] - دلال عباس، القرآن والشعر، ص 73 وما بعدها.

[11] - س. آل عمران، ي 7.

[12] - س. الطارق، ي 14.

[13] - س. الإسراء، ي 105.

[14] - س. الأنعام، ي 38.

[\[15\]](#) - س. الإسرائ ، ي 9.

[\[16\]](#) - س. الإسرائ ، ي 82.

[\[17\]](#) - س الزمري/ي 28.

[\[18\]](#) - س البقرة/ي 2.

[\[19\]](#) - س هود/ي 1.

[20] - س الأنعام/ي 114.

[21] - س المائدة/ي 3.

[22] - س يوسف/ي 37.

[23] - س يوسف/ي 111.

[\[24\]](#) - س الكهف/ي49.

[\[25\]](#) - س طه/ي52.

[\[26\]](#) - س الشعراء/ي2.

[\[27\]](#) - س النمل/ي1.

[281] - س القصص/ي 1 - 2.

[291] - س السجدة/ي 2.

[301] - السيوطي: "الإتقان في علوم القرآن: ج 2، ص 175.

[311] - أنظر، صبحي الصالح، علوم الحديث ومصطلحه، ص 4، نقلاً عن أبي البقاء: هديّة العارفين، مج 1، ص

229.

[321] - أنظر دلال عباس "بهاء الدين العاملي" أديبًا وفقهًا وعالمًا"، فصل الكتب المنسوبة إلى

البهائيّ (الخرافات المنسوبة إلى النبيّ في كتاب المخلاة المطبوع، الذي أثبتنا أنّّه ليس لبهاء الدين العامليّ). وكذلك مصادر اللغة لعبد الحميد الشلقاني، ص 158 - 160.

[33] - الطباطبائيّ، الميزان، ذيل تفسير الآيات 15 - 19 من سورة المائدة، مج9، ص 275.

[34] - س. النحل، ي 44.

[35] - س الأجزاء/بي 59.

[36] - أقرّت الصين قانونًا جديدًا يصبح ساريّ المفعول في مطلع تموز من العام 2013 يلزم الأبناء

بزيارة أهاليهم تحت طائلة مفاضاتهم أمام المحاكم في حال المخالفة. وذلك كما يقول القانون (للمحافظة على بناء وشكل الأسرة الصينية).

[37] - س الشوردي/ي 13.

[38] - س الشمسي/ي 8.

[39] - س. الطلاق، ي 2.

[40] - س. الأنفال، ي 29.

[41] - الميزان، ج6، ص 276.

[42] - س محمد^د/ي 24.

[43] - س الطارقة/ي14.

[44] - س البقرة/ي 143.

[\[45\]](#) - س الحج/ي78.

[\[46\]](#) - س البقرة/ي129.

[\[47\]](#) - س الإسراء/ي 29.

[\[48\]](#) - س الإسراء/ي 27.

[\[49\]](#) - س التوبة/ي 34.

[\[50\]](#) - س الملك/ي 15.

[\[51\]](#) - س الجمعة/ي 10.

[\[52\]](#) - س الانشقا ق/ي 6.

[\[53\]](#) - س البقرة/ي 267.

[\[54\]](#) - س آل عمرا ن/ي 113 - 114 - 115 .

[\[55\]](#) - س آل عمرا ن/ي 17 - 104 .

[\[56\]](#) - س التوبة/ي 112 .

[\[57\]](#) - س البقرة/ي 128

[58] - س النساء/ي 125.

[59] - س الغاشية/ي 17.

[60] - س سبأ/ي 26.

[61] - س الزخرف/ي 23.

[62] - س آل عمرا ن/ي 104.

[\[63\]](#) - س آل عمرا ز/ي 105.

[\[64\]](#) - س التوبة/ي 71.

[\[65\]](#) - س الأنبياء/ي 92.

[\[66\]](#) - س الحجرا ز/ي 13.

[\[67\]](#) - س المائة/ي 54.

[\[68\]](#) - س المنا فقوز/ي 8.

[\[69\]](#) - س التوبة/ي 111.

[\[70\]](#) - س المائة/ي 51.

[\[71\]](#) - س النساء/ي 139.

[\[72\]](#) - س النساء/ي 144.

[\[73\]](#) - س المائة/ي 81.

[\[74\]](#) - س الممتحنة/ي 1.

[\[75\]](#) - س الصف/ي 2-4.

[\[76\]](#) - س المائة/ي 56.

[\[77\]](#) - س التوبة/ي 119.

[\[78\]](#) - س المائة/ي 54 - 55 - 56.

[\[79\]](#) - س آل عمرا ن/ي 102.

[80] - س الأنفال/بي 60.

[81] - س آل عمرا ن/بي 200.

[82] - س المائة/ي 2.

[83] - س المائة/ي 55.

[84] - السيرة النبويّة لابن هشام، مج 2، حوادث السنة العاشرة من الهجرة. "البيان والتبيين" للجاحظ،

مج2، ص 31؛ والغدير في الكتاب والسنة والأدب" لعبد الحسين الأميني، مج1، ص 10؛ وأحمد زكي صفوت: جمهرة خطب العرب، الخطب 53، ص 57.

[85]- راجع دراسة الخطبة تفصيلياً في دلال عباس، القرآن والشعر، م. س، ص 215 وما بعدها.

[86]- س المائة/ي67.

[87]- "البيان والتبيين" للجاحظ ج2 ص 31 و"الغدير في الكتاب والسنة والأدب" للأميني (عبد الحسين) ج1، ص 10، وأحمد زكي صفوت: "جمهرة خطب العرب" الخطبة/53 ص 57.

[88] - موضوعٌ : ساقط ومحرمٌ م.

[89] - السدانة : خدمة الكعبة.

[90] - السقاية : ساقية فريش للحجاج.

[91] - العمدة : القتل المتعمد، والقود : قتل القاتل بقاتله.

[92] - النسيء : شهر المحرم، كانوا يحرّمونه عامًا، وعامًا يحلّونه إذا أرادوا الإغارة، فيقولون إنّه بعد صفر ويؤجّلونه.

[93] - تعضلوهن" : تضيقوا عليهن- الضرب غير المبرح: الضرب الخفيف.

[94] - س. المائة، ي 67.

[95] - س. المائة، ي 3.

[96] - ورد نصّ الخطبة كاملاً في نهج البلاغة، شرح الشيخ محمد عبده، ص 604- 630 ونهج البلاغة شرح ابن أبي الحديد، الجزء الرابع- دار الأندلس- لا. ت من ص 119- 130. ودراسة الخطبة كاملةً في كتاب القرآن والشعر، د. دلال عباس، م. س، ص 231 وما بعدها.

